

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس العاشر

المبحث: سورة لقمان

الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق

الدرس: تفسير القرآن الكريم

التاريخ: 14\9\2021 م

قبل التعطيل كان البحث في قوله تبارك وتعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ¹﴾ شرحت هذه الآية بشكل مفصل، بقيت هناك شبهة سأل عنها بعض الأعزاء.

حاصل الشبهة: أن هذا اللسان متكرر في القرآن الكريم ففي سورة البقرة ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ²﴾ وفي بعض الصور الأخرى كآل عمران ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ³﴾ وفي آية أخرى ﴿وَلَقَدْ جَنَّاهاُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ⁴﴾ وكذلك ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ⁵﴾ والآية محل البحث، حيث أن هذه الآيات تشترك في جعل الكتاب وآياته هدى لفئة خاصة، وهذه الفئة هي الفئة المؤمنة، غاية الأمر ذكرت أوصاف لبعض الآيات للمتقين وللمحسنين وما شابه ذلك، لكن الكلام عن فئة أهل الإيمان، إذا كان من المؤمنين فالمؤمن قد اهتدى، فما معنى أن تكون آيات الكتاب هدى له، هذه الشبهة قد تصاغ بطريقة أخرى، حاصلها: أنه في آيات الصيام يقول تبارك وتعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ⁶﴾ والناس في المصطلح القرآني إما أن تطلق على عموم الناس وإما أن تطلق على غير المؤمنين، وعلى كل تقدير تتنافى مع جعل الهداية في هذه الآيات لخصوص فئة خاص، فكيف يكون القرآن والآيات هدى لفئة خاصة مع كونه في سورة البقرة في آيات الصيام هو هدى للناس، لكل الناس. هذه أخرى للشبهة.

¹ لقمان 3

² البقرة 2

³ آل عمران 138

⁴ الأعراف 52

⁵ الأعراف 154

⁶ البقرة 185

البعض كأنه اعترف بورود هذه الشبهة، لذا التزم في مثل هذه الآيات بالتقدير، يعني مثلاً في سورة البقرة هدى للمتقين، أي: وهدى للكافرين لغير متقين، فيقول: هذا من حذف أحد الصنفين اعتماداً على ذكر الصنف الآخر، وهذا في اللغة العربية جائز، أن نحذف أحد المتقابلين اعتماداً على ذكر ما يقابله.

فإذن تنحل المشكلة، ولا يوجد منافاة مع هدى للناس؛ لأنه هو هدى للمتقين ولغير المتقين، والناس إما متقون وإما غير متقين. وكذلك في سائر الآيات نقدر ما يقابل المذكور، إذا شخص قال: لماذا ذكر المتقين؟ الأمر واضح لشرفهم.

فإذن البعض وجد نفسه في حل من هذه الشبهة، وأن هذه الشبهة ترد على ظاهر الآية، أما واقع الآية يوجد تقدير فلا بقاء لهذه الشبهة بحسب واقع الآية.

طبعاً هذا مجرد دعوى، هذا التكرار في الآيات، وهذه الهداية لفئة خاصة أن نرفع اليد عنها وندعي وجوب تقدير -صحيح أنه في بعض الأحيان يذكر شيء ويكون قرينة على شيء آخر كالبيت المشهور: "نحن بما عندنا وأنت بما عندك راضٍ والرأي مختلف" حذفنا نحن بما عندنا راضون اعتماداً على ذكر الثاني، وهذه القرينة واضحة.

أما إذا أتينا إلى متكلم يرتب شيئاً على فئة خاصة في كلامه، فمجرد وجود شبهة لا يكون ذلك قرينة على الالتزام بالتقدير، بل في الواقع هو فرار عن هذه الشبهة، وبالتالي هذا الوجه غير صحيح.

هناك وجوه متعددة يمكن أن تذكر، ولعل أنسب هذه الوجوه هو الإشارة إلى نوعين من الهداية، هناك هداية بيان وإرشاد، وهناك هداية من نوع آخر هداية لطف وتوفيق، النوع الثاني يحتاج إلى قابلية، هداية اللطف والتوفيق ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا⁷﴾ تحتاج إلى قابلية عند من يلطف به، هذه الهداية الخاصة لا تعطى إلا لفئة خاصة. أما هداية البيان هداية الإنذار هداية التبشير هي عامة لكل الناس ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ⁸﴾ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ⁹﴾ هذه هداية بيان،

⁷ الرعد 17

⁸ البلد 10

⁹ البقرة 185

هداية تبليغ، هداية بيان الحق والباطل لكل الناس، أما هذه الهداية المذكورة في مثل هذه الآية هي هداية خاصة، هذه الهداية الخاصة بحاجة إلى عناية خاصة في من تفاض عليه الهداية، فلا بد أن يكون من أهل التقوى ومن أهل الإحسان ومن أهل الرهبة والخشية من الله سبحانه وتعالى كما دلت على ذلك الآيات المتعددة.

ولذا جاء في القرآن الكريم ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ¹⁰﴾ ومن المعلوم أن ثمود استحبوا الضلالة على الهدى، هذا النوع من الهداية يعني أرسلنا له رسولا بين لهم طريق الخير وطريق الشر، هذه هي الهداية العامة لكل البشر للناس. وكذلك الحال في آيات أخرى متعددة.

في مقابل ذلك يوجد هداية خاصة التي في الأعم الأغلب في القرآن الكريم تنسب إلى الله سبحانه وتعالى، لا إلى الرسول، من قبيل قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ¹¹﴾ أو ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكِ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ¹²﴾ فالحاصل أن المتتبع للآيات القرآنية يجزم بأنه يوجد نوعان من الهداية:

النوع الأول: هداية عامة لكل البشر، وهي بإرسال الرسول، وإنزال الكتب، وتبيين الخير والشر، وطريق الحق وطريق الباطل.

النوع الثاني: هداية خاصة تحتاج إلى توفيق ولطف من الله تبارك وتعالى، وهذه لا تعطى لكل أحد، بل لا ينالها إلا فئة خاصة، وجاءت الآيات القرآنية تبين ذلك كل واحدة بحسب سياقها ومناسبتها أشارت إلى صفة من صفات هذه الفئة الخاصة، بعض الآيات أشارت إلى التقوى، وبعضها إلى الإحسان وبعضها إلى الرهبة والخشية وهكذا. فحينئذ لا موقع لهذه الشبهة.

طبعاً أتبني هذا الوجه، لكن يمكن أن يذكر وجوه أخرى.

¹⁰ فصلت 17

¹¹ الأنعام 90

¹² الأنعام 125

من قبيل التفريق بين مراتب الهداية، فهذا الوجه يكون صحيحاً إذا رجع إلى الوجه السابق، بالنتيجة هذا الذي يعطى لفئة خاصة والذين يستفيدون من هذه المرتبة الخاصة هم فئة خاصة. أما من يقابل هذه الفئة الخاصة من الكفار والخارجين على حدود الله سبحانه وتعالى فيقول عنهم الباري تبارك وتعالى في سورة فاطر: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ¹³﴾ يسمع من يشاء من الفئة الخاصة، حيث نزلت هذه الآية المباركة الكفار منزلة الموتى، فكما أن الميت لا يستفيد من الهداية هؤلاء الكفار لا يستفيدون من الهداية، وهذا الوجه ذكره علماء التفسير في جملة من آيات الأحكام، فإنه بناء على الرأي المشهور من أن الكفار مكلفون بالفروع فجاءت شبهة لماذا في بعض الفروع يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ¹⁴﴾ و ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا...¹⁵﴾ مع أن المفروض عند المشهور المكلف بالفروع هو المؤمن والكافر، جميع الناس، فأجاب جملة من علماء التفسير لأن هذا للإشارة إلى أن الذي يستفيد من هذه الشريعة هم أهل الإيمان على قاعدة وما أنت بمسمع من القبور، وإلا هو مكلف، لكن هذا لغفلة ولصدوده عن طريق الحق لا ينتفع من ذلك، يمكن أن يذكر هذا كجواب آخر عن الشبهة.

كتبه: عبدالله ضيف الستري البحراني

¹³ فاطر 22

¹⁴ البقرة 183

¹⁵ المائدة 6